﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡيِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: 48 - 49]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ مِنَ الاستدلالِ بنعمةِ اللَّيلِ والنَّهارِ إلى ما في الرّياحِ والمطرِ من النِّعَمِ

في مناسبةِ الآيتين لِما قبلَهما وجوهٌ متقاربةٌ:

منها: أنَّهُ لمّا دلَّ سبحانَهُ على عظَمتِهِ بتصرُّفِهِ في المعاني بالإيجادِ والإعدامِ، وختمَهُ بالإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ قريبةٍ؛ أتبعَهُ التَّصرُّفَ في الأعيانِ بمثلِ ذلكَ، دالًّا على الإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ بعيدةٍ[1].

ومنها: أنَّ الآيةَ انتقالٌ مِنَ الاستدلالِ بذكرِ حالِ النُّشورِ والامتنانِ بهِ إلى ما في الرّياحِ مِنَ النُّشورِ[2].

ومنها: أنَّهُ بعدَ بيانِ نعمتِهِ سبحانَهُ على عبادِهِ في اللَّيلِ والنَّهارِ، وبيانِ أنَّ النُّفوسَ تَسْتَرْوِحُ الرّاحةَ في اللَّيلِ، وتنهضُ للعملِ في النَّهارِ لطلبِ الرِّزقِ؛ بيَّنَ سبحانَهُ أنَّهُ يرزقُ النّاسَ بما يكونُ مادَّةَ عملِهم، وفيهِ مَعاشُهم، فقالَ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشۡرَۢا﴾: (بشر) البُشر: ظُهورُ الشَّيءِ وانتشاره معَ حُسْنٍ وجمالٍ[4]، فالبَشَرةُ: ظاهرُ الجِلْدِ، وسُمّيَ الإنسانُ بالبَشَرِ اعتبارًا بظُهورِ جِلْدِهِ مِنَ الشَّعَرِ، بخلافِ الحيواناتِ الَّتي عليها الصّوفُ أوِ الشَّعَرُ أوِ الوَبَرُ، وخُصَّ في القرآنِ كلُّ موضعٍ اعتُبِرَ مِنَ الإنسانِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 400.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 46.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بشر).

جُثَّتُهُ، وظاهرُهُ بلفظِ البَشَرِ، نحوُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾، والمباشرةُ: الإفضاءُ بالبَشَرتين، وأبشَرْتُ الرَّجلَ، وبَشَرْتُهُ وبَشَّرْتُهُ: أخبرتُهُ بسارٍّ بَسَطَ بشَرةَ وجهِهِ، وذلكَ أنَّ النَّفْسَ إذا سُرَّت؛ انتشرَ الدَّمُ فيها انتشارَ الماءِ في الشَّجَرِ[1]، والبِشارةُ: الخبرُ السّارُّ، ولا تقعُ في الشَّرِّ إلّا على سبيلِ التَّهكُّمِ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21]، وقيلَ: تُستعمَلُ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لأنَّ البِشارةَ عبارةٌ عن خبرٍ يتغيَّرُ لهُ البَشَرُ، وذلكَ يكونُ في الشَّرِّ، كما يكونُ في الخيرِ[2].

2) ﴿طَهُورًا﴾: (طهر) أصلٌ يدلُّ على نَقاءٍ وزوالِ دَنَسٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: الطُّهْرُ، خلافُ الدَّنَسِ، والتَّطهُّرُ: التَّنزُّهُ عنِ الذَّمِّ وكلِّ قبيحٍ[4]، ويقالُ: طَهُرَتِ المرأةُ طُهْرًا وطهارةً، خلافُ طمثَتْ، والطَّهارةُ: النَّظافةُ والمبالغةُ فيها[5]، والطَّهارةُ ضربانِ: طهارةُ جسمٍ، وطهارةُ نفسٍ، والطَّهورُ قد يكونُ مصدرًا، وقد يكونُ اسمًا لِما يُتطهَّرُ بهِ، وقد يكونُ صفةً[6].

3) ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾: (سقي) أصلٌ يدلُّ على تحصيلِ الماءِ ونحوِهِ مِنَ المائعِ في الجوفِ بإنفاذِهِ إليهِ[7]، تقولُ: سَقَيْتُهُ أَسْقيهِ سَقْيًا، وأسقَيْتُهُ؛ إذا جعلتَ لهُ سُقْيًا[8]، قالَ تعالى في السَّقْيِ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان: 21]، وقالَ في الإسقاءِ: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: 27]، وقيلَ: السَّقْيُ والإسقاءُ بمعنًى، والاستسقاءُ: طلبُ السَّقْيِ أو الإسقاءِ[9]، والسِّقايةُ: الموضعُ يُتَّخذُ فيهِ الشَّرابُ في المواسمِ وغيرِها[10].

4) ﴿وَأَنَاسِىَّ﴾: (أنس) أصلٌ يدلُّ على الأُنسِ والأُلفةِ بظُهورِ الشَّيءِ، وكلُّ شيءٍ خالفَ طريقةَ التَّوحُّشِ[11]، فالإنسُ: خلافُ الجنِّ، والأُنْسُ: خلافُ النُّفورِ، والإنسيُّ منسوبٌ إلى

(1) الراغب، المفردات: (بشر).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (بشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر)، والزمخشري، أساس البلاغة: (طهر).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (طهر).
(6) الراغب، المفردات: (طهر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سقي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقي).
(9) الراغب، المفردات: (سقي)، والسمين، عمدة الحفاظ: (سقي).
(10) الخليل، العين: (سقي).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنس).

الإنسِ، يقالُ ذلكَ لمَنْ كَثُرَ أُنْسُهُ، ولكلِّ ما يُؤْنَسُ بهِ، وجمعُ الإنسِ: أَناسيُّ، قالَ ﷻ: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾، وأمّا الإنسانُ؛ فقيلَ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ خُلِقَ خِلْقةً لا قَوامَ لهُ إلّا بأُنْسِ بعضِهم ببعضٍ، ولهذا قيلَ: الإنسانُ مدنيٌّ بالطَّبعِ، ولا يمكنُهُ أنْ يقومَ بجميعِ أسبابِهِ، وقيلَ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ يأنسُ بكلِّ ما يألفُهُ، وقيلَ: أصلُهُ: إِنْسيانٌ، سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّهُ عَهِدَ اللّهُ إليهِ، فنَسيَ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المطرُ حياةٌ للأرضِ والأنعامِ والنّاسِ

أرسلَ اللّهُ الرّياحَ مُبشِّراتٍ بمجيءِ السَّحابِ بعدَها، وأنزَلَ بعظَمتِهِ مِنَ السَّحابِ الَّذي أنشأَهُ بالرّياحِ ماءً طَهورًا؛ لتحيا بهِ أرضًا لا تُنبتُ، وليشربَ منهُ الحيوانُ مِنْ أنعامٍ وأناسيَّ محتاجينَ إليهِ غايةَ الحاجةِ، لشُرْبِهم وزروعِهم وثمارِهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بين الجملتين بالواو:

الامتنانُ بالنِّعَمِ على المُخاطَبينَ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ على ما قبلَهُ؛ لأنَّهُ داخلٌ معَهُ في حيِّزِ الاستدلالِ على قُدرةِ اللّهِ تعالى، وحيِّزِ الامتنانِ بالنِّعَمِ على المُخاطَبينَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

إرسالُ الرياحِ دليلٌ على عِظَمِ قُدرةِ الخالقِ

في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ استدلالٌ وامتنانٌ، فهو دليلٌ على عِظَمِ قُدرةِ الخالقِ، وتذكيرٌ ببعضِ نِعَمِهِ جلَّ وتباركَ على عبادِهِ، وعُبِّرَ بالموصولِ في الآيةِ؛ لأنَّ مدارَ الاستدلالِ والامتنانِ هو الكلامُ المذكورُ في حيِّزِ الصِّلةِ، والَّذي يفيده بناءً على القصرِ وجوبُ إفرادِهِ تعالى بالعِبادةِ والشُّكرِ.

(1) الراغب، المفردات: (أنس).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 279.

سرُّ إيثارِ الإرسالِ على البَعْثِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

الإرسالُ فيهِ رِفْقٌ ورحمةٌ، والبعثُ تنبيهٌ وإيقاظٌ

اختيرَ الإرسالُ دونَ البَعْثِ في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، معَ أنَّهما يشتركانِ في معنى التَّوجيهِ - لأنَّ مِنْ جملةِ الفروقِ بينَهما: أنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلَّا في المواضعِ الَّتي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: 3][1]، والسِّياقُ هنا سياقُ نعمةٍ ورِفْقٍ ورحمةٍ، فيناسبُهُ الإرسالُ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرْسَلَ﴾:

إطلاقُ الإرسالِ على تكوينِ الرِّياحِ

في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، حيثُ أُطلِقَ على تكوينِ الرِّياحِ للسحابِ الإرسالُ، الَّذي هو حقيقةٌ في بَعْثِ شيءٍ وتوجيهِهِ؛ لأنَّ حركةَ الرِّياحِ تُشبِهُ السَّيرَ، وقد شاعَ استعمالُ الإرسالِ في إطلاقِ العِنانِ لخيلِ السِّباقِ[2]، كأنَّ الرِّياحَ كانَتْ مُقيَّدةً بإرادتِهِ سبحانَهُ، ثمَّ أرسلَها[3].

بلاغةُ تعريفِ الطرفين في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

الخالقُ هو المتصرِّفُ في هذهِ الكائناتِ

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ استدلالٌ على الانفرادِ بالخَلْقِ، وامتنانٌ بتكوينِ الرِّياحِ والمطرِ، ومَوْرِدُ الاستدلالِ قصرُ إرسالِ الرِّياحِ، وما عُطِفَ عليهِ على اللهِ ﷻ؛ إبطالًا لادِّعاءِ الشُّرَكاءِ لهُ في الإلهيَّةِ، بنفيِ الشِّركةِ في التَّصرُّفِ في هذهِ الكائناتِ، وذلكَ ما لا يُنكِرُهُ المشركونَ، وهذا الاستدلالُ بدقيقِ صُنْعِ اللهِ في تكوينِ الرِّياحِ، فالعامَّةُ يعدّون بما هو داخلٌ تحتَ مُشاهَدتِهم مِنْ ذلكَ، والخاصَّةُ يُدرِكونَ كيفيَّةَ حدوثِ الرِّياحِ وهُبوبِها واختلافِها[4].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: 136 - 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 46.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5291.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 46.

ويلاحظ أنَّ التعريف هنا بالضمير، الذي هو أعرفُ المعارف، واسم الموصول الذي هو قريب منه في القوَّة، ويحلُّ القصر محلَّ جملتين، الأولى إثبات ذلك للّه، والثانية نفي ذلك عمّا سواه، وفي هذا الأسلوبِ من تأكيد المعنى وتعظيم اللّه تعالى بإفراده بالأُلوهيَّة ما لا يُقادر قدرُهُ، ولا يكتنه كنهه، ولا يقترب منه غيره.

دلالةُ التَّعريفِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

اتِّساع المعنى باحتمال الجنس والاستغراق

تحتمل (أل) التعريفية في ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ أن تكون للجنس، أي: جعل لكم جنس الرياح بُشرًا، وتحتمل أن تكون للاستغراق بنوعيه: استغراق الأجزاء، أي: جعل لكم كلَّ جزءٍ من أجزاء الرياح بُشرًا ورحمة، أو لاستغراق الأفراد، أي: جعل لكم كلَّ أفراد الرياح وأنواعها بُشرًا، والعموم الناشئ عن الاستغراق بنوعيه قد يدخله نوع تخصيص؛ إمّا في بعض أجزاء الرياح التي تحمل الغمام، وليس فيه مطر، أو في بعض الرياح دون بعض، كريح الدبور، التي أهلكت بها عادٌ، أو فيهما معًا، أو يكون التخصيص أمرًا خارجًا عن أنواع الرياح كلِّها بقدرتِهِ سبحانه.

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

اختلافُ القراءاتِ بالجمعِ والإفرادِ

قرأَ ابنُ كثيرٍ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفرادِ، وقرأَ الباقونَ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمعِ[1]، وقراءةُ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ محمولةٌ على الجنسِ، فهي بمعنى الرِّياحِ[2]، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ قراءةَ الجمعِ أوجهُ؛ لأنَّ الرِّيحَ متى وردَتْ في القرآنِ مُفرَدةً؛ تكن للعذابِ، ومتى وردَتْ بالجمعِ؛ تكن للرَّحمةِ؛ لأنَّ ريحَ المطرِ تتشعَّبُ، وتتفرَّقُ، وتأتي ليِّنةً مِنْ عِدَّةِ جهاتٍ، وبالتَّدريجِ، وريحَ العذابِ تأتي جسدًا واحدًا، فتُدمِّرُ ما تجدُ[3]، وأوردَ عليهِ أنَّ هذا

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 334.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 213.

الفرقَ أكثريٌّ، أو عندَ عدمِ القرينةِ، أو هو في المُنكَّرِ لا في المُعرَّفِ، وعليهِ فمُؤدَّى القراءتينِ واحدٌ[1].

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿بُشْرًا﴾:

قرأَ عاصمٌ: ﴿بُشْرًا﴾، وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿نُشُرًا﴾، وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿نَشْرًا﴾، وقرأَ الباقونَ: ﴿نُشُرًا﴾[2].

بلاغةُ الإيجازِ في تعدُّدِ المعاني بتعدُّدِ القراءاتِ في اللفظِ الواحدِ

أمّا قراءةُ ﴿نُشُرًا﴾؛ فهي جمعُ (نَشورٍ)، مِثلُ: رُسُلٍ ورَسولٍ، وأمّا قراءةُ ﴿نُشْرًا﴾؛ فهي بتخفيفِ العينِ، كما يقالُ: كُتُبٌ ورُسْلٌ، وقراءةُ ﴿نَشْرًا﴾؛ فالنَّشْرُ مصدرُ نَشَرْتُ الثَّوبَ، ضدُّ طَوَيْتُهُ، والمرادُ بالمصدرِ هنا المفعولُ، والرّياحُ كأنَّها كانَتْ مطويَّةً، فأرسلَها اللّهُ تعالى منشورةً بعدَ انطوائِها.

وأمّا قراءةُ ﴿بُشْرًا﴾؛ فهي جمعُ (بشيرٍ)، أي: أرسلَ الرّياحَ مُبشِّراتٍ تُبشِّرُ بالمطرِ والرَّحمةِ[3]، وكلُّ هذه المعاني صالحةٌ لوصفِ الريحِ بها.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾:

الرّيحُ وما تأتي به مبشِّراتٌ عن رحمةِ اللهِ تعالى

في قولِه تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ استعارةٌ مليحةٌ[4]، وهذهِ الاستعارةُ ترشيحيَّةٌ، شُبِّهَ المطرُ بالرَّحمةِ، ثمَّ استُعيرَت لهُ الرَّحمةُ، ورُشِّحَتْ بقولِهِ: ﴿بُشْرًا﴾، ثمَّ جُعِلَ ﴿بَيْنَ يَدَىْ﴾ تتميمًا لها؛ لأنَّ البشيرَ يتقدَّمُ المُبشَّرَ بهِ.

ويجوزُ أنْ تكونَ تمثيليَّةً، و﴿بُشْرًا﴾ مِنْ تتمَّةِ الاستعارةِ، وداخلٌ في جملتِها، ومَنْ قرأَ ﴿نَشْرًا﴾؛ كانَ تجريدًا لها؛ لأنَّ النَّشْرَ يناسبُ السَّحابَ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 46.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 269 - 270.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 287.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 284.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 251.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ كنايةً عنِ القُدّام، وإنْ لم يكنْ لهُ يدٌ[1].

سرُّ الإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَحْمَتِهِۦٓ﴾:

تشريفُ الرَّحمةِ بإضافتِها إلى اللهِ ﷻ

في إضافةِ الرَّحمةِ إلى ضميرِهِ تعالى في قولِهِ ﷻ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ تشريفٌ للرَّحمةِ، وتفخيمٌ لشأنِها، وذلكَ ملائمٌ غايةَ الملاءمةِ لمقامِ الامتنانِ على الخَلْقِ بهذهِ النِّعَمِ الجليلةِ، ومقامِ الاستدلالِ على قُدرتِهِ ﷻ.

بلاغةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾:

التَّشريكُ في القصرِ والمعنى المترتِّبِ عليه

جملةُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، فهي داخلةٌ في حيِّزِ القصرِ، أي: وهو لا غيرُهُ الَّذي أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا[2].

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾:

إبرازُ كمالِ العنايةِ بإنزالِ المطرِ

في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لإبرازِ كمالِ العنايةِ بالإنزالِ؛ لأنَّهُ نتيجةُ ما ذُكِرَ مِنْ إرسالِ الرِّياحِ[3]، ولأنَّ التَّكلُّمَ أليقُ بمقامِ الامتنانِ[4].

نكتةُ إسنادِ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ إلى نونِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ إنزالِ الماءِ الطَّهورِ مِنَ السَّماءِ

أُسنِدَ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ لتعظيمِ شأنِ إنزالِ الماءِ الطَّهورِ مِنَ السَّماءِ، حيثُ لا مُمسِكَ للماءِ غيرُهُ ﷻ[5]، والمعنى: وأنزَلْنا بعظَمتِنا بما رتَّبْنا مِنْ إرسالِ الرِّياحِ مِنْ جهةِ الفَوْقِ ماءً بليغًا في الطَّهارةِ[6].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 117، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 47.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 224، واطفيش، تفسير اطفيش: 7/ 66.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 47.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 401.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 224، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 30.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا﴾ ابتدائيَّةٌ[1]، والمعنى: وأنزَلْنا ابتداءً مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالسَّماءِ في: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

اختُلِفَ في المرادِ بالسَّماءِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا﴾، فقيلَ: المرادُ بها جهةُ العُلوِّ[2]، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بها إحدى السماواتِ السَّبْعِ، أوِ السَّحابَ[3].

بلاغةُ تقديمِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿مَآءً﴾:

قُدِّمَ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿مَآءً﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا﴾ لِما في التَّقديمِ مِنَ العنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو كونُ نُزولِ المطرِ مِنَ السَّماءِ، وذلكَ أعظمُ في القُدرةِ، وأنسبُ بمقامِ الاستدلالِ عليها، ومقامِ الامتنانِ بالنِّعَمِ، وللتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وهو الماءُ الطَّهورُ، ولتعظيمِ مصدرِ الماءِ.

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ والتشويقُ إلى المُؤخَّرِ، ومراعاةُ الفاصلةِ

وأيضًا: في تأخيرِ ﴿مَآءً﴾ معَ وصفِهِ ﴿طَهُورٗا﴾ مراعاةٌ لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

سرُّ تنكيرِ قولِه: ﴿مَآءً﴾:

تنكيرُ ﴿مَآءً﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا﴾ للتَّعظيمِ، أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بديعًا عظيمَ الشَّأنِ، لا يَقْدِرُ على إنزالِهِ غيرُنا، وهذا التَّعظيمُ يناسبُ مقامَ الاستدلالِ على كمالِ قُدرتِهِ جلَّ وعزَّ، ومقامَ الامتنانِ بالنِّعَمِ على المُخاطَبينَ.

تعظيمُ نعمةِ خَلقِ الماءِ بالرياحِ وإنزالِه

وللدلالةِ على العمومِ معَ أنَّه نكرةٌ في سياقِ الإثباتِ؛ لأنَّه جاءَ في مقامِ الامتنانِ من جهةٍ، ولوصفِه بصيغةِ المبالغةِ ﴿طَهُورٗا﴾ من جهةٍ أُخرى.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 117.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10464.
(3) اطفيش، تفسير اطفيش: 7/ 66.

نكتةُ وصفِ الماءِ بالطَّهورِ ﴿مَآءً طَهُورًا﴾:

إكرامُ المُخاطَبينَ، وتتميمُ المِنَّةِ عليهم

إنزالُ الماءِ موصوفًا بالطَّهارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وتعليلُهُ بالإحياءِ والسَّقْيِ في قولِهِ: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ يُؤذِنُ بأنَّ الطَّهارةَ شرطٌ في صحَّةِ ذلكَ، وليسَ الأمرُ كذلكَ، بل وجهُ وصفِ الماءِ بالطَّهورِ، أنَّهُ لمّا كانَ سَقْيُ الأناسيِّ مِنْ جملةِ ما أُنزِلَ لهُ الماءُ؛ وُصِفَ بالطَّهورِ؛ إكرامًا لهُم، وتتميمًا للمِنَّةِ عليهم، فإنَّ الماءَ الطَّهورَ أهنأُ وأنفعُ ممّا خالطَهُ ما يزيلُ طهوريَّتَهُ، وبيانًا أنَّ مِنْ حقِّهم حينَ أرادَ اللّهُ لهُمُ الطَّهارةَ، وأرادَهم عليها أنْ يُؤثِروها في بواطنِهم، ثمَّ في ظواهرِهم، وأنْ يبتعدوا عن مخالطةِ القاذوراتِ كلِّها[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطَّهورِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾:

احتمالُ اللَّفظِ معانيَ مُتعدِّدةً

اختُلِفَ في المرادِ بالطَّهورِ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾:

فقيلَ: الطَّهورُ: اسمٌ لِما يُتطهَّرُ بهِ، كالفَطورِ لِما يُفطَرُ بهِ، والسَّحورِ لِما يُتسحَّرُ بهِ، والمعنى: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طاهرًا مُطهِّرًا[2]، وقيلَ: الطَّهورُ صفةٌ، كقولِكَ: ماءٌ طَهورٌ، وقولِكَ: ماءٌ طاهرٌ[3]، وجوِّزَ أنْ يكونَ مصدرًا لـ (تطهَّرَ) المضعَّفِ، جاءَ على غيرِ المصدرِ[4].

بلاغةُ الإدماجِ في وصفِ الماءِ بالطَّهورِ:

الماءُ طاهرٌ في نفسِهِ مُطهِّرٌ لغيرِهِ

يدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ على أنَّ ماءَ المطرِ بالغٌ مُنتهَى الطَّهارةِ؛ إذ لم يختلطْ بهِ شيءٌ يُكدِّرُهُ، وهو أنقَى المياهِ؛ لخُلوِّهِ عن جميعِ الجراثيمِ، فهو الصّافي حقًّا، ووصفُهُ بالطَّهورِ يقتضي أنَّهُ مُطهِّرٌ لغيرِهِ؛ إذ العُدولُ عن صيغةِ فاعلٍ إلى

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 285، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 466.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 115.

صيغةِ فعولٍ لزيادةِ معنًى في الوصفِ، فاقتضاؤُهُ في هذهِ الآيةِ أنَّهُ مُطهِّرٌ لغيرِهِ اقتضاءٌ التزاميٌّ؛ ليكونَ مُستكملًا وصفَ الطَّهارةِ القاصرةِ والمُتعدّيةِ، فيكونُ ذِكرُ هذا الوصفِ إدماجًا لمِنَّةٍ في أثناءِ المِنَنِ المقصودةِ، ويكونُ كقولِهِ ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: 11]، ولولا الإدماجُ المذكورُ؛ لكانَ الأحقُّ بمقامِ الامتنانِ وصْفَ الماءِ بالصَّفاءِ أو نحوِ ذلكَ[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بينَ هذهِ الآيةِ وآياتٍ أُخَرَ:

قالَ ﷻ هنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾.

وقالَ في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف: 57].

وقالَ في سورةِ الرّوم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: 48].

وقالَ في سورةِ فاطرٍ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: 9].

وقد وقعَ في هذهِ الآياتِ اختلافٌ، معَ تشابهِها في اللَّفظِ وتقاربِ مقاصدِها، ومِنْ جملةِ وجوهِ الاختلافِ:

الأوَّلُ: اختلافُ مَطالعِها بورودِ (يُرْسِلُ) و(أرسلَ).

الثّاني: وصفُ الرّياحِ وإتباعُها بقولِهِ في الأعرافِ والفرقانِ: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، ولم يَرِدْ ذلكَ في سواهما.

الثّالثُ: ما يكونُ عن إرسالِ الرّياحِ، ففي آيةِ الأعرافِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: 57]، وفي سورةِ الرّومِ وسورةِ فاطرٍ: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: 48] [فاطر: 9]، ولم يُذكَرْ ذلكَ في الفرقانِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 47.

والجوابُ عن الأوَّلِ: "أنَّ آيةَ الأعرافِ تقدَّمَها قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، فذكرَ سبحانَهُ ما تقرَّرَ، وتحصَّلَ مِنْ خلقِ السَّماواتِ والأرضِ ممّا لا تكرُّرَ لهُ، ثمَّ أعقبَ سبحانَهُ بما يتكرَّرُ مِنْ إنعامِهِ على الخَلْقِ ممّا بهِ قِوامُ أحوالِهم ومصالحُ عَيْشِهم، فعبَّرَ بصيغةِ المضارعِ الدّالَّةِ على الاستمرارِ والتَّكرُّرِ.

وأمّا آيةُ الرّومِ؛ فقد تقدَّمَها التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ.

وأمّا آيةُ الفرقانِ؛ فقد تقدَّمَها التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي.

وأمّا آيةُ فاطرٍ؛ فالتَّعبيرُ فيها بالماضي مبنيٌّ على مَطْلَعِ السّورةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1]، فـ ﴿فَاطِرِ﴾ [فاطر: 1] و﴿جَاعِلِ﴾ [فاطر: 1] هنا بمعنى المُضيِّ.

والجوابُ عنِ الثّاني: أنَّ آيةَ الأعرافِ قد تقدَّمَها قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، وقولُهُ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: 56]، وفي هذا كلِّهِ استلطافٌ، ومِنْ نحوِ هذا الاستلطافِ قولُهُ سبحانَهُ في سورةِ الفرقانِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الآيات، فناسبَ ذلكَ أنْ يوردَ في السّورتينِ قولُهُ تعالى: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، ولم يَرِدْ ذلكَ في سورةِ الرّومِ وسورةِ فاطرٍ؛ لأنَّهُ ليسَ فيهما مثلُ هذا الاستلطافِ.

والجوابُ عنِ الثّالثِ: أنَّ آيةَ الأعرافِ لمّا قيلَ فيها: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: 57] بالتَّعبيرِ بلفظِ العُمومِ ﴿كُلِّ﴾ [الأعراف: 57]؛ ناسبَ ذلكَ وُرودُ ما يُفهِمُ كثرةَ ماءِ السَّحابِ، وهو وصفُها بكونِها ثِقالًا، ولمّا لم يقعْ في الآياتِ الأُخَرِ توسعةٌ في المُخْرَجِ بالماءِ؛ وقعَ الاكتفاءُ بذكرِ إثارةِ السَّحابِ، وحصلَ إرسالُها الماءَ ممّا بعدُ، ولم يَرِدْ في آيةِ الفرقانِ ذكرُ إثارةِ الرّياحِ السَّحابَ؛ اكتفاءً ببشارةِ قولِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿لِّنُحْىِىَ﴾:

اللّامُ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿لِّنُحْىِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ للتَّعليلِ، فالغرضُ مِنْ إنزالِ

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/ 182.

الماءِ الطَّهورِ إحياءُ المَواتِ وسَقْيُ الأناسيِّ[1]، وتحتمل أن تكون اللّامُ لامَ العاقبةِ، وليستْ لامَ التَّعليلِ؛ لأنَّ أفعالَ اللهِ ﷻ لا تُعلَّلُ، وقد بيَّنَ سبحانَهُ في الآيةِ غايةَ الماءِ الطَّهورِ، أو عاقبةَ نُزولِهِ بإرادةِ اللهِ تعالى وأمرِهِ الَّذي لا مُعَقِّبَ لهُ، ولا رادَّ لفضلِهِ[2].

الغرضُ مِنْ إنزالِ الماءِ الطَّهورِ إحياءُ المَوَاتِ

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ إحياءَ المَواتِ وسَقْيَ الأناسيِّ أمرانِ مستقبلانِ بالنِّسبةِ لزمنِ إنزالِ الماءِ الطَّهورِ مِنَ السَّماءِ.

الإحياءُ والسَّقْيُ أمرانِ مستقبلانِ

سرُّ التَّعبيرِ بنونِ العظَمةِ في قولِهِ: ﴿لِّنُحْيِيَ﴾ و﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ و﴿خَلَقْنَآ﴾:

عُبِّرَ بنونِ العظَمةِ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ لتعظيمِ شأنِ إحياءِ المَواتِ وسَقْيِ الأناسيِّ والخَلْقِ؛ إذ لا يَقْدِرُ على ذلكَ إلّا القديرُ المقتدرُ ﷻ، أي: لنُحييَ بعظَمتنا بهِ بلدةً مَيْتًا.

تعظيمُ شأنِ الإحياءِ والسَّقْيِ والخَلْقِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإحياءِ في: ﴿لِّنُحْيِيَ﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى شبَّهَ وجودَ الزَّرعِ والغَرْسِ وما يتبعُهما بالإحياءِ، أي: إنَّ الأرضَ في حالِ جَدْبِها كالميتِ، وفي حالِ زرْعِها واستغلالِها كالحيِّ، وكلُّ ذلكَ بفضلٍ مِنَ اللهِ تعالى[3].

تشبيهُ وجودِ الزَّرعِ والغرسِ بالإحياءِ

بلاغةُ باءِ السببيَّة في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿بِهِۦ﴾:

بعد أن ذكر النَّظمُ الكريم المطر ونزوله إلى الأرض جاء بالباء في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ للسَّببيَّةِ، والمعنى:

الحديثُ عن السَّببِ بعد الحديثِ عن المسبَّبِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 401.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5293.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5293.

لنُحييَ نحن بما لنا من العظمة بهذا الماءِ الطَّهورِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ بلدةً مَيْتًا.

نكتةُ تقديمِ الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿بَلْدَةً﴾:

العِنايةُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤَخَّرِ

قُدِّمَ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿بَلْدَةً﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ للعِنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو حصولُ الإحياءِ بالماءِ الطَّهورِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ، والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ، وهو وقوعُ الإحياءِ على البلدةِ المَيْتِ.

سرُّ التَّعبيرِ عن المكان بالبلدة:

خُلوُّ الأرضِ ممّا ينتفع بها

أغلبُ استعمالاتِ هذه المادة في خلوِّ الشَّيءِ ممّا يُنتفع به غالبًا، فالبلدةُ منزلة من منازل القمر خلاء لا نجوم فيها، والبلد من الأرض: مكانٌ لم يُحفر فيه بئرٌ، ولم توقدْ فيه نارٌ، والبلد من السَّحاب الذي لم يُمطر، ومن الفرس الذي لم يسبق، ومن الإنسان البليدِ الَّذي لم يجتهد لخمول أو غباء، فعبَّر عن المكان بالبلدةِ؛ للدَّلالة على أنَّه قفرٌ، ليس فيه شيءٌ يُنتفع به.

سرُّ تنكيرِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿بَلْدَةً﴾:

تعدُّدُ الأغراضِ البلاغيَّةِ في النَّكرة

يحتمل أن يكون تنكيرُ ﴿بَلْدَةً﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ للتَّبعيضِ، والمعنى: لنُحييَ بهِ بعضَ البلادِ المَيْتةِ[1]، وهي بعضُ بلادِ المُتبعِّدينَ على مَظانِّ الماءِ[2].

ويُحتملُ أن تكون للعموم مع أنَّها نَكرةٌ في سياق الإثبات؛ لأنَّها وردت في سياق الامتنان، وهو أقوى السياقات الدالَّة على عموم النَّكرة المثبتة، ولا مانع أن يكون التَّنكيرُ للتحقير للدلالة على أنَّها بلدةٌ، ليس فيها شيءٌ يُنتفع به، ثم هي ضعيفةٌ حقيرةٌ، لا تصلح أن تكون أهلًا للحياة ولا الإحياء.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 285.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 542.

بلاغةُ وصفِ البلدةِ بالمَيِّتِ:

إجـراءُ الـوصفِ ليعمَّ كلَّ مكانٍ

لمّا كُرِهَ أنْ يُفهَمَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً﴾ تخصيصُ البلادِ؛ أُجريَ الوصفُ باعتبارِ الموضعِ؛ ليعمَّ كلَّ مكانٍ، فقيلَ: ﴿مَّيْتًا﴾، أي: بما نُحدِثُ فيهِ مِنَ النَّباتِ بعدَ أنْ كانَ هشيمًا ثمَّ ترابًا؛ ليكونَ ذلكَ آيةً بيِّنةً على قُدرتِنا على بَعْثِ الموتى بعدَ كونِهم ترابًا[1].

علَّةُ تذكيرِ وصفِ البلدةِ: ﴿مَّيْتًا﴾:

البـلـدُ بمعنى الموضعِ أوِ البلدِ

ذُكِّرَ وصفُ البلدةِ في قولِ اللهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، ولم يقل: (مَيْتةً)؛ لأنَّ المرادَ: لنُحييَ بهِ موضعًا ومكانًا مَيْتًا[2]، أو أنَّ البلدةَ في معنى البلدِ[3]، فوُصِفَتِ البلدةُ بالمَيْتِ؛ لأنَّهُ جعلَهُ كالمصدرِ الَّذي يوصَفُ بهِ المُذكَّرُ والمُؤنَّثُ، وجازَ ذلكَ مِنْ حيثُ إنَّ البلدةَ بمعنى البلدِ[4].

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾:

الـدِّلالـةُ على الموت وما يسبقه بلفظ واحد

قرأَ أبو جعفرٍ: ﴿مَّيِّتًا﴾ بتشديدِ الياءِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿مَّيْتًا﴾ بتخفيفِها[5]، والمَيْتُ: هو الَّذي ماتَ بالفعلِ، والميِّتُ: هو الَّذي يَؤولُ أمرُهُ إلى الموتِ، وإنْ كانَ ما يزالُ على قيدِ الحياةِ[6]، أو الَّذي فيه نوع حياة، لكنَّه أشرفَ على الموت، وقيلَ: هما لغتانِ[7].

سرُّ تقديمِ إحياءِ الأرضِ على سَقْيِ الأنعامِ:

إحـيـاءُ الأرضِ سـبـبٌ لـحـيـاةِ الأنعامِ

قُدِّمَ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إحياءُ الأرضِ على الأنعامِ؛ لكونِ إحياءِ الأرضِ سببًا لحياةِ تلكَ الأنعامِ[8].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 401.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 279.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 284.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 213.
(5) القاضي، البدور الزاهرة، ص: 227.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10456.
(7) الجزائري، فروق اللغات، ص: 212.
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.

بلاغةُ الواوِ العاطفة في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾:

التَّشريكُ في الحُكم مع قصد الترتيب المحكم

قولُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، ويفيدُ هذا العطفُ أنَّ في الماءِ الطَّهورِ المُنزَلِ منَّتين: **إحداهما:** إحياءُ المَواتِ وإظهارُ النَّباتِ الَّذي هو منفعةٌ للرَّعي، **والثّانية:** سَقْيُ الأنعامِ والأناسيِّ، وهو منفعةٌ عظيمةُ الجَدْوى في الحفظِ مِنَ الموتِ بالشُّرْبِ، كما كانَتْ نعمةُ الإحياءِ حافظةً بالأكلِ[1]، وفي ذلكَ تحريكٌ لسلسلةِ الشُّكرِ للمُنعِمِ المُتفضِّلِ جلَّ شأنُهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾:

الضَّميرُ للماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ

ضميرُ الهاءِ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ راجعٌ إلى الماءِ الطَّهورِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ، أي: ونُسْقي ذلكَ الماءَ الطَّهورَ عندَ جَرَيانِهِ في الأوديةِ أوِ اجتماعِهِ في الحياضِ والمَناقعِ والآبارِ أنعامًا وأناسيَّ كثيرًا[2]، وللدَّلالة على أنَّ كلَّ أنواعِ الماءِ الصالحِ للسقي من الآبارِ والأنهارِ وغيرِها راجعٌ إلى الماءِ الطهورِ، المنزلِ من السَّماءِ، فهو وحدَه مصدرُها، وإن تعدَّدت، واختلفت، وتنوَّعت.

بلاغةُ استعمالِ (مِن) في قولِهِ تعالى: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ وإعرابها:

كثرةُ المعاني بناءً على اختلاف الإعراب

تحتملُ أن تكون (مِنْ) في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ تبعيضيَّةً[3]، والمعنى: ونُسْقيَهُ بعضَ ما خلَقْناهُ[4]، وتحتملُ أنْ تكونَ بيانيَّةً[5].

والجار والمجرور في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ حالٌ مِنْ ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ﴾[6]، أي: ونُسْقيَهُ أنعامًا وأناسيَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 402.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 31.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 429.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 48.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 429.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 48.

كثيرًا كائنةً ممّا خلقنا، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بالفعلِ ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾، وفيه إشارةٌ بديعةٌ إلى أنَّ اللّه تعالى يتعهَّد خلقه بعد خلقه لهم، فيسوق إليهم طعامهم وشرابهم، أو للدَّلالة على أنَّ سبب رعايته سبحانه هؤلاء الأنعام والأناسي أنَّهم خلقُهُ، أي: ما سقتُ لهم بعظمتي الطَّعام والشراب إلّا لكونهم خَلقي وصنعتي، وسأربّيهم بِنِعَمي، ولا أتخلّى عنهم أبدًا، وأمهلهم، وإن عبدوا غيري.

نكتةُ التَّعبير بـ(ما) في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾:

احـتـمـالُ (مـا) لـلـمـوصـولـيَّـة والمصدريَّة

تحتمل أن تكون (ما) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ موصولةً، والموصولُ للإيماءِ إلى علَّةِ الخبرِ، أي: نُسقيهم؛ لأنَّهم خلْقَنا، وفي ذلك إشارةٌ إلى رحمةِ اللّهِ بهم؛ لأنَّهم خَلْقُهُ[1]، ويحتمل أن تكون مصدريَّةً، أي: نسقيه خلقنا، وفيها الإشارة السابقة نفسها.

وعلى كلا الاحتمالين يأتي احتمال (مِن) التبعيضية والبيانية، فهذه أربعة أوجهٍ يمكن الجمعُ بينها، كلُّ واحدةٍ منها باعتبار، وفي ذلك من إيجاز القرآن العظيم ما لا يخفى.

نكتةُ تخصيصِ الأنعامِ والأناسيِّ بالذِّكرِ:

زيـادةُ الامتنانِ على المُخاطَبينَ

تخصيصُ الأنعامِ والأناسيِّ بالذِّكرِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ لأنَّ أهلَ المدنِ والقُرى يقيمونَ بقُرْبِ الأنهارِ، فبهم وبما حولَهم مِنَ الأنعامِ غُنْيةٌ عن سُقْيا السَّماءِ، وسائرُ الحيواناتِ تُبْعِدُ في طلبِ الماءِ، فلا يُعْوِزُها الشُّرْبُ غالبًا، معَ أنَّ مَساقَ هذهِ الآياتِ للدَّلالةِ على عِظَمِ القُدرةِ، فهو لتعدادِ أنواعِ النِّعمةِ، والأنعامُ قِنْيةُ النّاسِ، وعامَّةُ منافعِهم ومعايشِهم مَنوطةٌ بها[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 48.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 285، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.

سرُّ تقديمِ الأنعامِ على الأناسيِّ:

الأنـعـامُ قِـنْـيـةُ الإنسانِ

قُدِّمَ سَقْيُ الأنعام على سَقْيِ النّاسِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ لأنَّ الأنعامَ قِنْيةُ الإنسانِ، وعامَّةُ منافعِهم مَنوطةٌ بها[1]، ولأنَّ تقديمَ ذكرِ الأنعامِ على الأناسيِّ اقتضاهُ نَسْجُ الكلامِ على طريقةِ الإحكامِ في تعقيبِهِ بقولِهِ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾، ولو قُدِّمَ ذِكرُ الأناسيِّ؛ لتفكَّكَ النَّظمُ[2].

وقيلَ: تقديمُ سَقْيِ الأنعامِ على سَقْيِ الأناسيِّ؛ لأنَّهم إذا ظَفِروا بما يكونُ سَقْيَ أرضِهم ومَواشيهم؛ لم يَعْدَموا سُقْياهم، فهو مِنْ بابِ تقديمِ ما هو الأهمُّ والأصلُ في بابِ الامتنانِ، وذِكرُ سَقْيِ الأناسيِّ على هذا إردافٌ وتتميمٌ للاستيعابِ[3]، وبالجملة فإحياءُ الأرضِ وإخراجُ النَّباتِ بالمطرِ ينفعُ الأنعامَ والأناسيَّ، فكأنَّه ﷻ يمتنُّ على الإنسانِ بنعمِهِ التي تصلُهُ بواسطةِ النباتِ والأنعامِ، والتي تصلُهُ بغيرِ واسطةٍ كسقي الماءِ.

سرُّ تنكيرِ الأنعامِ والأناسيِّ ووصفِ الأناسيِّ بالكثرةِ:

المـــرادُ بـعـضُ الأنـاسيِّ، وهم أهلُ البوادي

نُكِّرَ الأنعامُ والأناسيُّ، ووُصِفَ الأناسيُّ بالكثرةِ في قولِ الحقِّ جلَّ وتباركَ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ جُلَّ الناسِ مُنيخونَ بالقُرْبِ مِنَ الأوديةِ والأنهارِ ومنابعِ الماءِ، فبِهم غُنْيةٌ عن سَقْيِ السَّماءِ، وأمّا أعقابُهم - وهم كثيرٌ منهُم - فلا يُعيِّشُهم إلّا ما يُنزِلُ اللّهُ مِنْ رحمتِهِ وسُقْيا سمائِهِ.

وبناءً على ذلكَ يكونُ التَّنكيرُ للتَّنويعِ، فالمرادُ نوعٌ مِنَ الأناسيِّ والأنعامِ، وهم سُكّانُ البوادي[4]، ولا يُنافي التَّنكيرُ المفيدُ للقليلِ وصفَ الأناسيِّ بالكثرةِ؛ لأنَّهم وإنْ كانوا بعضًا مِنَ النّاسِ؛ فهُم كثيرٌ[5].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 127.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 49.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 31.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 429.
(5) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 14/ 120.

دلالةُ وصفِ الجمعِ بالمفردِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾:

اتِّساعِ دلالةِ الصيغةِ على المفردِ والجمعِ والمذكرِ والمؤنثِ

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ وُصِفَ ﴿وَأَنَاسِيَّ﴾ وهو جمعٌ - بـ ﴿كَثِيرًا﴾، وهو مُفرَدٌ في اللفظ؛ لأنَّ فعيلًا قد يُرادُ بهِ المُتعدِّدُ، كرفيقٍ وقليلٍ، قالَ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ [الأعراف: 86][1].

❁ الفروقُ المعجميَّةُ:

البَعثُ والإرسالُ:

فُرِّقَ بينَ البعثِ والإرسالِ مِنْ وجوهٍ:

البعثُ: فيهِ تنبيهٌ وإيقاظٌ، والإرسالُ: فيهِ رِفقٌ ورحمةٌ غالبًا

منها: أنَّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ أو بما يَجْري مَجْراها غالبًا، وأمّا البعثُ؛ فيجوزُ دونَ ذلكَ[2]، ومنها: أنَّ الاستعمالَ القرآنيَّ لكلمتَيِ البعثِ والإرسالِ يشتركُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ، وهو التَّوجيهُ، وبينَ الكلمتينِ ملامحُ دلاليَّةٌ فارقةٌ؛ هي: أنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلّا في المواضعِ التي جاءَ مركَّبًا فيها معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، نحوُ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: 3][3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 49.

(2) معجم الفروق اللغوية، ص: 103.

(3) محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: 136 - 137.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»